

السبيل

الثالث

عشر

د. صالح احمد العلي

تعتبر نظرية نقاوة العرق اليوم من النظريات البالية بعد ان اثبتت الدراسات العلمية الدقيقة والمتعددة عدم صحتها ، ولم يبق ممن يؤمن بها الا عند قليل من المتعصبين ذوي المصالح علما بانهم لا يلتقون في اعتقادهم تأييدا ولا يحضون بأي تقدير .

غير ان اسرائيل بالرغم من رفض العلم لهذه النظرية فانها تعتبرها عقيدة اساسية ، وتعتبر قيام دولتها قائما على اساس هذه الفكرة . وقد اثار موقفها اشمزاز العالم واستهجانهم ، فاصدرت هيئة الاسم المتحدة ، وهي اعلى مؤسسة عالمية ، قرارها بان اسرائيل دولة عنصرية ، وان هذا مثير استهجان العالم .

ان هذا القرار الخطير صادر من اعلى هيئة دولية ومستند على اساس علمية ومنعت من الاخطار التي تنجم في العالم من تبني هذا المبدأ . غير انه بالرغم من ذلك فان اسرائيل للذين للقرار ، وظلت متمسكة بمقيدتها العنصرية دون حياء او خجل . وقد تناسلت اسرائيل ان هذه المقيدة تناقضة لكل النواحيات العلمية .

وقد ظهرت حديثا دراسات تثبت ان اليهود ليسوا عنصرا نقي الدم ، ولكنهم خليط من دماء متعددة . ومن ابرز هذه الدراسات كتاب صدر في الصيف الماضي ، مؤلفه الكاتب البريطاني اليهودي المشهور ارثر كستلر ، بين فيه ان اكبر مجموعة من اليهود هي التي تسكن في روسيا واوربا الشرقية ومن حاجر منهم الى الولايات المتحدة ، وان هؤلاء اليهود اصلهم من الخزر الذين كانوا يقعون في العصور الوسطى في جنوب روسيا . وليست لهم علاقة عرقية بالاسرائيليين الذين كونوا دولة في فلسطين . لذلك فان القول بان اليهود خالصوا الدم واقدم يتكونون من اثني عشرة قبيلة (سبطا) هو قول غير صحيح ، لان الغلبة يهود العصر الحاضر هم من الخزر في الاصل ، وقد اورد أدلة تاريخية وحضارية والتربولوجية كثيرة لتوضيح ودعم واه . وبذلك يكون يهود هؤلاء الخزر القبيلة الثالثة عشر والاهم اذا كان اليهود اثنا عشر قبيلة كما يدعون ؟ ومن هنا حصل عنوان كتابه The Thirteen Tribes

ومؤلف الكتاب ارثر كستلر يهودي من واسط اوريا ، فايوه مجري ، واهم نمسارية ، وقد اعتنق المعتقدات النمساوية ، وحارب مع الشيوعيين في اسبانيا ، ثم لجأ الى فرنسا حيث سجن بعد الاحتلال الألماني لفرنسا ، ثم فر من السجن ولجأ الى انكلترا ، وشارك المنشقين على روسيا ونقودها على الاحزاب الشيوعية . ونشر عددا كبيرا من الكتب الادبية والسياسية ، وتتميز كتبه بوضوح الفكرة وسلاسة الاسلوب .

والكتاب الذي تلخصه اليوم صدر في انكلترا قبل بضعة اشهر ، فلقى اقبالا عظيما عند الناس ، ولكنه اثار استهجانا شديدا عند اليهود ، فشنوا عليه حملة عنيفة ، ونشروا البحوث والمقالات في التهجم عليه ، وبالنظر لاهمية الكتاب قائما تقدم تلخيصنا وانما له ، محاولين المحافظة على روح الكتاب ولب محتواه ، ولا ريب في ان الكتاب عن اليهود ، وقد عرض بعض الآراء التي يمكن اعتبارها مخالفة في دورهم ، كما انه قسم تفاصيل كثيرة عن دولة اليهود في الخزر ، وقد اثرا ان يكون لها نفس التفصيل في ملخصنا لقلصة المعلومات عنها ، ولعلاتها بتاريخ العرب والمسلمين في العصور الوسطى هذا فضلا عن ان معرفة العدو على حقيقته يساعد على وضع خطط انضج للعرب في كفاحهم الاساس ضد اسرائيل .



دولة الخزر

كانت تسيطر في
اواخر القرن الثامن
الميلادي على المالم
المتحضر دول كبيرة يحكم كل منها
ملك عظيم؛ فالدولة الإسلامية التي
تمتد بلادها من اواسط اسيا حتى
المحيط الاطلسي كان على رأسها
الخليفة هارون الرشيد ، وبالقرب
منها كانت الدولة البيزنطية التي
تحكم اقاليم ممتدة من اواسط اسيا
الصغرى حتى ايطاليا . وعلى عرشها
الامبراطورة ايرين ، اما اوروبا فكان
يحكمها شارلمان الذي توج نفسه على
الامبراطورية الرومانية الجديدة التي
شملت فرنسا والمانيا وشمال ايطاليا .
وفي ذلك الوقت ايضا كانت المنطقة
الواقعة بين القوقاس والفولغا في
شرقي اوروبا تحكمها دولة يهودية
تعرف بامبراطورية الخزر ، وقد
قامت هذه الدولة ابان اوج قوتها بين
القرن السابع والقرن العاشر الميلادي ،
يدور مهم في تشكيل مصائر اوروبا في
العصور الوسطى ثم الحديثة . وما
يوضح مكانة هذه الدولة الخزرية في
زمنها ما ذكره المؤرخ البيزنطي
قسطنطين بوردو فيدرو جينس من ان
الكتب التي كان يرسلها الامبراطور
البيزنطي الى الهابا او الى امبراطور
اوروبا الغربي كانت تختتم بختم ذهب
قمته دينار ، اما الكتب التي كانت
ترسل الى ملك الخزر فكانت قمية
ذهب ختمها ثلاثة دنانير . ويقول
المؤرخ الانكليزي بيوري ان خانات
الخزر لم تكن مرتبطة عند الاباطرة
البيزنطيين اقل من مرتبة الامبراطور
شارلمان .

دورها

حكمت دولة الخزر البلاد الواقعة
بين البحر الاسود وبحر قزوين ،
وبذلك كانت كالسد الذي حمى
الدولة البيزنطية من غزوات البلغار
والمجريين والبشكن ثم الفاكينك
والروس ، كما صدت التقدم العربي
الى الاقاليم الشمالية؛ ولعل دورهم
هذا هو الذي حدا بقسطنطين الخامس
(الخزري) الى التزوج من ابنة
ملك الخزر .
ولما قام العرب بالفتوح وحطموا
جيش الروم وازالوا الدولة الساسانية
تقدم رتل من قواتهم نحو الاقاليم
الشمالية وحرزوا انتصارات في مناطق
ارمينية والقوقاز . غير ان العرب
توقفوا ولم يتابعوا انتصاراتهم
بسبب انشغالهم بالمشكلات الداخلية
التي قامت في اواخر الخلافة الاموية
وقد اتاح توقف العرب الفرصة
للخزر في تثبيت اقدامهم في شمال
القوقاز ؛ ثم اتخذوا في سنة ٧٤٠ م
(١٢٣ هـ) اليهودية ديناً رسمياً لهم ،
علماً بانهم لم يكونوا من نسل

اسرائيل ولم يكن لليهودية مسند
سياسي انذاك . ولا سقطت دولتهم
تشتوا في القرم واوركنا وحنغاريا
وبولندة ولتوانيا ، وبذلك كونوا فيما
يعتقد المؤرخون ، اصول اليهود في
هذه المناطق؛ اي ان يهود هذه المناطق
هم من اصل خزري ، وليسوا من
اصل اسرائيلي .

موقف المؤرخين اليهود منها

وقد حاول بعض المؤرخين المحدثين
وخاصة اليهود منهم ، على تجنب
معالجة هذه الحقيقة ، وعملوا على
عدم ابرازها للقراء ؛ ويتجلى هذا
واضحاً فيما كتبه معروفا دائرة
المعارف اليهودية في طبعة سنة ١٩٧٣ ،
وكذلك فيما كتبه بولياك استاذ
التاريخ اليهودي في العصور الوسطى ؛
ومن العلوم ان يهود شرقي اوروبا
يكونون اكبر كتلة من يهود العالم ؛
وان معظم يهود الولايات المتحدة هم
من هذا الجتم ، وهم جميعاً من اصل
خزري ، اي ان اصولهم ليست في
فلسطين بل في الفولغا ، وبلاذهم
القديمة ليست كنعان بل القوقاز ، وهم
في دمهم اقرب الى الهون والمجر منهم
الى الساميين .

من هم الخزر

كان الخزر في القرن الثالث الميلادي
قبائل يعيشون في الخيام ، ثم اخذوا
على عمر الايام في الاستقرار وانتشاء
القرى والمدن ، وجعلوا بيوتهم مستديرة
الشكل ، كالخيام . غير انهم لم
يتركوا حياة التجول حتى بعد
استقرارهم ، فيذكر الاصطخري في
كلامه عن عاصمتهم الاثل «وليس لهذه
المدينة قرية ، الا ان مزارعهم مفرشة ،
يخرجون في الصيف في الزروع نحو
عشرين فرسخاً ليزرعوا ، ويجمعوا
بعضه على النهر وبعضه على الصحارى ،
فينقلون غلاتهم بالمجسل وفي النهر .
استطاع الخزر ان يكونوا دولة
بسطة سيطرتها على المنطقة التي
بين القرم ونهر الفولغا ، وانشأوا
حصونا قوية على طول حدودهم ،
وسيطروا على بحر قزوين ، ومن هذا
جاءت تسمية العرب له «بحر الخزر» .
وقد وصفهم ابن سعيد المغربي بان
بشرتهم بيضاء ، وعيونهم زرق ،
وشعرهم مسترسل اشقر ، وابداهم
ضخمة ، وطبعم بارد . وقال عنهم
الاصطخري : والخزر لا يشبهون
الأتراك ، وهم سود الشعر ؛ وهم
صنفان : صنف يسمون قرا خزر ،
وهم سمر يضربون لشدة السمرة الى
السواد ، كانهم صنف من الهند .
وصنف بيض ظاهر اوا الحسن
والجمال .

اصلهم

لا نعلم على وجه التحقيق اصل
الخزر ؛ ولكن الراجح انهم هاجروا
من اواسط اسيا في حدود القرن
الخامس الميلادي ، فهم اقرب الى
الشعوب التركية ؛ وتصل اسمهم
مشتق في الاصل من التركية «جز»
اي «المتجول» او «البدوي» . ومن
الطريف ان نذكر ان كلمة «هزر» عند
القوزاق الروس وعند الهنغارين
معناها «الفرسان» وان كلمة
«كز» تعني في اللغة الالمانية
«يهودي» . ويذكر العقوبي ان الخزر
هم من نسل يافث ، ابن نوح .
ورد ذكر الخزر في مؤلفات الكاتب
السرياني زكريا الخطيب الذي ذكر
انهم كانوا يقيمون في منطقة
القوقاس . كما ذكرهم بركوكس ،
وهو مؤرخ بيزنطي زار بلاط اتتلا ،
فتحدث عن الخزر البيض ومحاولة
البيزنطيين ضمهم الى جانبهم دون
نجاح . قلما سقطت دولة الهون قام
الخزر ببعض الغزوات في منطقة
القوقاز وخضعوا خلال ذلك لدولة
البلغار ثم لدولة الترك التي حكمت
تلك المناطق فترة من الزمن . وقد
حاول الامبراطور البيزنطي هرقل
محاللتهم في حربه مع الفرس .

اختلاطهم

وقد ادرك الساسانيون خطر
الخزر وهجماتهم على الاطراف
الشمالية من دولتهم ، فقاموا بتحصين
باب الابواب ليسدوا الثغرة التي
يتوغل منها الخزر . قلما قضى
العرب على الدولة الساسانية وورثوا
اراضيها ، اتخذوا موقف الهجوم
فتقدموا من باب الابواب وتوغلوا في
الشمال مستهدفين فتح بلنجر وهي
اكبر المدن الخزرية القريبة من هذه
الحدود ؛ واستطاع القائد العربي
سلمان بن ربيعة الباهلي من فتح
عدد كبير من المدن والقلاع ، ولكن
قوة كبيرة من الخزر قابله عند ابواب
بلنجر ، وانتصرت عليه ، وقتل مع
حوالي اربعة الاف من جيش المسلمين
في سنة ٣٠ هـ ، فتوقفت الفتح
الاسلامية مؤقتاً في هذا الميدان ، ثم
ان الخزر بعد ان امنوا بهذا الانتصار
حدودهم الجنوبية ، توجهوا نحو
الغرب فاختصموا قبائل المجر والبلغار
واوركنا والقرم ، وكونوا دولته
ضمت هذه الشعوب .
ثم جدد العرب حملاتهم ، وحرزوا
في بعض هذه الحملات نجاحاً كبيراً
وغم ان الخزر ابدوا مقاومة وجلاء ،
فقد استطاع مسلمة بن عبد الملك فتح
بلنجر وسنند ، ولكنه عاد وانسحب
منها . وفي سنة ١٢٠ هـ قاد مروان

اليهودية هي التي استفادت من قوتهم العسكرية والاقتصادية : والواقع انه لم يرد ابان القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ذكر لحروب خاضها الخزر اللهم الا مرتان في القرن الثامن. وكان احدهما عندما ماتت ابنة خاقان الخزر وهي في عفاها. وكانت قد تزوجت والي ارمينية المسلم. فارتاب ملك الخزر من سبب الوفاة. وظنه محاولة متعمدة لقتلها. فقام بهجوم على اطراف الدولة الاسلامية : وفيما عدا ذلك فقد ساد السلم والاستقرار في العلاقات مع المسلمين والروم .

● تقدم الفايكنج والروس

غير انه ظهر في القرن التاسع الميلادي خطر جديد انبعث من الفايكنج الذين يسمون في المصادر المعاصرة بالروس . فقد تقدم هؤلاء الفايكنج من سكندنافيا سالكن الانهار والبحار بالسفن. وساروا بـ تلين اتجاه احدهما الى الغرب فغزا ايسلندا وابرلندا ونورماندي وباريس وشواطئ الاندلس وايطاليا ثم وصل الى القسطنطينية فدخلها . وبذلك برزت أهمية الخزر في الصمود بوجه الفايكنج وحماية البيزنطيين والمسلمين من اخطار مخزوم .

اما الرتل الثاني من الفايكنج فقد تقدم من شمالي روسيا سالكا نهري الفولغا حتى وصل بحر قزوين. وسلك نهري الدنيبر ايضا حتى وصل البحر الاسود . وقاده هذا التقدم الى الاصطدام بالبلغار والخزر لانه هدد املاكهم في بلاد يسكنها السلاف . وقد ظل هؤلاء الروس يفتزون الاقاليم الجنوبية فترة من الزمن. ثم استقروا وقاوتوا بالحضارة السلافية واصطبغوا بها .

وللوقوف بوجه التقدم الروسي تعاون الخزر والسلاف على بناء قلعة سركل في مصب الدون . فضلا عن

حصون اخرى شيدها الخزر لهذا الغرض . غير ان الروس استطاعوا تثبيت اقدامهم : ثم سيطروا على كييف وجعلوها مدينة زاهرة .

واستغل الروس في احدى الفترات انشغال الجيش البيزنطي في بعض الحوادث بعيدا عن العاصمة . فقاموا بغزو القسطنطينية ونهب كافة القرى والاديرة حولها . وقد نبهت هذه الغزوة البيزنطيين الى خطر الروس فحاولوا القضاء عليهم . واخذوا يستخدمونهم في الاسطول وفي الجيش. وسمحوا لهم بالتجارة مع القسطنطينية بشروط خاصة . ثم تنصرت اولجا اميرة كييف . واستقرت النصرانية في تلك الامارة بعدئذ. وبذلك توطلت العلاقة بين البيزنطيين والروس على حساب الخزر الذين اخذت احوالهم بالتدهور .

المجريون

ومن الشعوب ذات الصلة الوثيقة بدولة الخزر في تلك الازمنة هم المجريون وهم قبائل جاءت في الاصل من مناطق الاورال. وسكنوا بين الدون وكوبان ولهم لغة خاصة لا تشبه ممن يجاورهم الا لغة اصل قنلندة . وكانت علاقتهم طيبة مع الخزر . فكانوا يجيئون للخزر الضرائب من الشعوب المجاورة وخاصة من البلغار. ثم عين لهم خاقان الخزر ملكا منهم هو ارباد الذي يعتبر اول ملك هنقاري. وقد قاد هذا الملك المجريين واروطنهم هنغاريا حيث لا يزالون مقيمين فيها حتى اليوم . وقد انضم عدد من الخزر الى المجريين قائلوا في تكوينهم العرقي .

● سقوط الدولة

تقدم الروس

ادت هجرة القبائل المجرية نحو الغرب وتأسيس امارة كييف التي تطبق الحصار على دولة الخزر من الغرب. ثم ظهر لهم خطر جديد هددهم من الشرق جاء من الروس الذين اخذوا يتقدمون للتجارة احيانا وللنهب احيانا اخرى. وقد وصف المسعودي احدى غزوات الاسطول الروسي لمدينة امل سنة ٣٠٠ هـ حيث قال في كلامه عن الروس ووقد كان بعد الثلاثمائة (من الهجرة) ورد عليهم نحو من خمسمائة مركب . في كل مركب مائة نفس فدخلوا خليج ينطس المتصل ببحر الخزر . وهناك رجال ملك الخزر مرتبين بالعدد القوية يصدون من يرد من ذلك البحر . فلما وردت مراكب الروس الى رجال الخزر المرتبين على فم الخليج واسلوا ملك الخزر في ان يجتازوا البلاد وينحدروا في نهريه. فدخلوا نهر الخزر ويتصلوا ببحر الخزر . فاباحهم ذلك. فدخلوا الخليج واتصلوا بمصب النهر فيه وساروا مصعدين في تلك الشعبة من الماء حتى وصلوا الى نهر الخزر وانحدروا فيه الى مدينة امل . فانتشرت مراكب الروس في هذا البحر وطرحت سراياها الى الجبل والديلم وبلاد طبرستان وابسكون . وهي بلاد على ساحل جرجان وبلاد النفاطة ونحو بلاد اذربيجان . فسفكت الروس الدماء واستباحست النسوان والولدان . ولغنت الاموال. وشنت القساوت واخرت راحقت . فضج من حول هذا البحر من الامم لانهم لم يكونوا يعهدون في قديم الزمان بمسحوا بطرقهم فيه. وانما تختلف فيه مراكب التجار والصياد . وكانت الروس تآوى عند رجوعها من غاراتها الى جزائر تقرب من النفاطة

على اميال منها . وكان ملك شروان يومئذ علي بن الهيثم . فاستعد الناس وركبوا في القوارب ومراكب التجار . وساروا نحو تلك الجزائر. فمالت عليهم الروس. فقتل من المسلمين وغرق الوف . واقام الروس شهورا كثيرة في هذا البحر على ما وصفنا لا سبيل لاحد ممن جاور هذا البحر من الامم اليهم والناس مهتاجون لهم . فحدون منهم . لانه بحر عامر لمن حوله من الامم . فلما غنموا وسثموا ما هم فيه ساروا الى نهر الخزر ومصبه . ولولا ذلك لكان على المسلمين منهم افة عظيمة. وعلم بشأنتهم الارمنية ومن في بلاد الخزر من المسلمين. فقالوا لملك الخزر خلنا وهؤلاء القوم فقد اغاروا على بلاد اخواننا المسلمين وسفكوا الدماء وسبوا النساء والذاري . فلم يكن لملك منهم وبعث الى الروس فاعلمهم بما قد عزم عليه المسلمون من حربهم . وعسكروا وخرجوا يطلبونهم منحدرين مع الماء . فلما وقعت العين على العين خرجت الروس عن مراكبها وصافوا المسلمين . وكان مع المسلمين خلق من التصاري من المقيمين بمدينة امل وكان المسلمون من نحو خمسة عشر الفا بالخيول والعسد . فاقام الحرب بينهم ثلاثة ايام . ونصر الله المسلمين عليهم . واخذهم السيف . فمن قتل وغرق . ونجا منهم نحو خمسة الاف. وركبوا في المراكب الى ذلك الجانب مما يلي بلاد برطاس . وتركوا مراكبهم وتعلقوا بالبر. فمنهم من قتله اهل برطاس. ومنهم من وقع الى بلاد البرغمر الى المسلمين فقتلهم وكان من وقع عليه الاحصاء ممن قتله المسلمون على شاطئ نهر الخزر نحو من ثلاثين الفا . ولم يكن للروس من تلك السنة عودة الى ما ذكرناه .

وقد جدد الروس هجومهم بعد ثلاثين سنة فاحتلوا بردعة . ثم تماقبت بعد ذلك حملاتهم .

امارة كييف

اما امارة كييف فقد قامت بحملة نجحت في اخذ مدينة سركل . فكان ذلك ايدانا بزوال دولة الخزر. وكان ملكهم فلاديمير قد اعتنق النصرانية الارثوذكسية بعد ان حاولت مختلف الاديان جلبه اليها . ومن الطريف ان تذكر انه عندما حاول اليهود سألهم لماذا اقتناعه باعتناق اليهودية سألهم لماذا لم يقيموا دولة في فلسطين ؟ فاجابوا لان الله غضب على اجدادهم لما اقترفوه من آثام وشرو فشتتهم بين الناس . فلما سمع فلاديمير جوابهم طردهم قائلا: كيف تستطيعون هداية الناس وانتم مشبهون قد يؤثم بغضب من الله . وقد حاولت الدولة البيزنطية الاعتماد على امارة كييف في حمايتها. غير انها اخطأت التقدير . لان امارة

غزو المغول وأثره

ولما غزا المغول أوروبا قُتِل كثير من الشعوب من وجهها . ونجا بعضهم ومنهم الكومان إلى عتقاريا . ثم اجتاحت هذه البلاد في القرن الثالث عشر جيوش جنكيزخان تهاجم ونالها الموت الأسود (١٣٤٧) وهو وباء هائل اجتاحت البلاد وقتل معظم السكان . وفر كثير منهم تاركين البلاد خرابا ليس لها من يعمرها . وهكذا هاجرت الشعوب، لأن الهجرة هي السبيل الوحيد لبقيائها في الحياة إذا أرادت ذلك . فكان ممن هاجروا هؤلاء الخزر فلحقوا بمن سبقهم من ابتاء جلدتهم الذين استوطنوا في أوكرانيا وجنوب روسيا . ومن مظاهر هذه الاسماء الخزرية لكثير من الأماكن في هذه المناطق وفي الكاربات وكذلك من المقاطعات الشرقية من روسيا . غير أن عددا منهم ظل في الكرج وفي القفقاس ولا يزال حتى اليوم في شرقي القفقاس عدد من اليهود يسمون أنفسهم دانج جو قوتي أي يهود الجبال .

الهجرة إلى بولندة

وفي سنة ٩٦٢م، وهي السنة التي تدمرت فيها مدينة سركل الخزرية . كونت القبائل السلافية حلفا برعاية البولنديين . وكان هذا الحلف نواة دولة بولندة؛ وقد لعب اليهود دورا ملحوظا في هذه الأحداث، وبروي أن المرشحين لعرش بولندة كان رجلا يهوديا اسمه ابراهام بروجوفسك . وسواء كان هذا الخبر صحيحا أم لا فإنه يدل على أن اليهود . وهم هنا من أصل خزري، كانت لهم قوة وعدد ملحوظ في بولندة آنذاك . وأن البولنديين أرادوا الاستفادة من خبراتهم في الإدارة والمالية .

غير أن أعدادا أخرى من اليهود أجبرت على الهجرة من بلاد الخزر وأوطنت في الأقاليم الغربية، ومن هؤلاء عدد من الأسرى الذين نقلوا إلى ليتوانيا ثم إلى بولندة . ولعل منهم أيضا عدد من القرائين . وبذكر الرحالة الفرنسي دي لانوني أن عددا من الجاليات اليهودية كانوا يقطنون في أرجاء مختلفة من شمال بولندة ولتوانيا ويتكلمون اللهجة التركية مما قد يدل على أن أصولهم خزرية . ولا تزال هذه اللغة هي المستعملة في العبادات الدينية لليهود القرائين في عدد من المدن مثل تروكي وولنا ولومزك وهاليج .

امتيازاتهم في بولندة

اتجه البولنديون عند تأسيس دولتهم نحو الغرب : ولما كانوا

وفي القرن الثاني عشر الميلادي انتشرت من الخزر تبوءة بظهور مسيح بخلص بيت المقدس . وقد نشر هذه النبوءة خزري يهودي اسمه شليسون ابن درجي وعاونته في نشرها ابنه مناحيم وقد ادعى شليسون هذا أنه إيليا وأن ابنه هو المسيح المنتظر : وكاتب في ذلك عددا من اليهود في مختلف الأنظار، وحاول أن يسيطر على بعض البلاد إلا أنه فشل في هذه السيطرة . وقد انتشرت دعونه في البلاد وظلت ذكراه قائمة أمدا . ويروي أن النجمة السداسية التي تتخذها إسرائيل شعارا لها هي من إبداع شليسون هذا .

التفتت

لقد فقدت دولة الخزر في سنة ٩٦٥ إمبراطوريتها . ولكنها لم تفقد كيانتها . بل ظلت دولة صغيرة ذات حدود واضحة حتى القرن الثالث عشر حيث أزالها المغول نهائيا من الوجود . وقد أرسلت قبيل زوانها إلى البلاد السلافية خروعا لنشر اليهودية . فكانت بذلك أوسع وأقوى منطقة لليهود في العالم الحديث؛ وأخذ اليهود ينساحون إلى مختلف الجهات تجارا ورحالين وقوما لا وطن لهم إلا حيث يقبوا موقتا في محلات محصورة تسمى الجيتو يتشؤون فيها مدارسهم وعباداتهم ويتنظرون مسيحا ينقذهم .

الهجرة إلى المجر

ففي هنغاريا مثلا انضم عدد من الكابارين إلى المجرين وهاجروا إلى هنغاريا . وقد بدأت هذه الهجرات قبل تدبير دولة الخزر . ثم استمرت بعد ذلك فلما انتصر سانت اصطيغان فقد اليهود بعض مكانتهم ولكنهم لم يفقدوا كيانتهم . وقد صدر في المجر ما يسمى الرسوم الذهبية . وهو شبه المانكا كارتا الإنكليزية . وحرم فيه اليهود من وظائف سك النقود وجمع الضرائب والسيطرة على الممالك الملكية . مما يدل على أنهم كانوا يتمتعون بهذه الامتيازات قبل ذلك . ومن المعلوم أن ماله الملك المجرية كان يشرف عليها رجل اسمه نيكاس وهو يهودي من أصل خزري لمجدورا خطيرا في السياسة وظل باقيا في منصبه مدة أحد عشر سنة ورغم صدور الرسوم الذهبية . ولم يمتزل عن عمله إلا بعد ما تدخل البابا وأجبر الملك على ذلك . فذهب نيكاس إلى النمسا ولكنه عاد إلى هنغارية في عهد الملك بكلا الرابع . وهو ابن الملك اندريه؛ وظل في عمله حتى قبله المغول عندما غزوا هنغارية .

كيف لم تدم طويلا . بل سرعان ما انهارت أمام تقدم القفجاق الأتراك الذين بسطوا سلطانهم على بلاد واسعة امتدت حتى هنغاريا . وظلت مهيمنة من القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر حيث اكتسحهم المغول . وكان موقف هؤلاء القفجاق معاديا للبيزنطيين . وما تجدر الإشارة إليه أن فرعا آخر من الأتراك الفرزة . وهم السلاجقة تقدموا في آسيا الصغرى وسحقوا الجيش البيزنطي وأسروا إمبراطوره في معركة ملاذكرد الشهيرة .

فترة مظلمة

لقد سيطرت على هذه الأقاليم خلال هذه الفترة عصور مظلمة لانعلم فيها عن شعوب تلك البلاد أية تفاصيل . والمصادر الوحيدة عن هذه الفترة هي المصادر العربية . وهي بدورها مفتضبة وغير متفصلة في معلوماتها : فيقول ابن حوقل أن الروس دمروا كليا خزران وسمندر والاتل . غير أن المصادر الروسية لا تذكر حملة قام بها الروس آنذاك . ويلاحظ أن ابن حوقل يصل بين خزران والاتل . علما بأنها مدينة واحدة . كما أنه لا يذكر سركل . ثم أنه يذكر أن الاتل كانت لا تزال في زمنه مركزا للتجار الروس ومن المحتمل أن الروس غزوا الاتل ففر أهلها ثم عادوا فينوها . ويقول ابن مسكويه أن الخزر استعادوا الاتل بمساعدة المسلمين . أما المقدسي فلم يشر إلى غزو الروس ويكتفي بالقول أن أهل الاتل ساروا نحو البحر . ثم عادوا إلى مدينتهم بعد أن اعتنقوا الإسلام .

الخزر في أواخر العصور الوسطى

وقد ورد ذكر الخزر في المصادر المتأخرة . مما يدل على عدم اندثارهم؛ غير أنه لم ترد معلومات عن قوتهم وتماصصهم مما يدل على مسكني تضعفهم وضعفهم ثم زوال دولتهم . غير أن زوال دولتهم لا يعني زوال آثارهم في أماكن وشعوب متعددة . فيذكر ابن العبري أن تلك أبو سلجوق كان في الأصل قائدا في جيش خاقان الخزر ثم انفصل عنه فأسس الدولة السلجوقية . ويقول ابن العديم أن أبو سلجوق كان من أشرف الترك الخزر ويقول ابن حنبل بأن سلجوق كان في خدمة ملك الخزر ثم ترك تلك الخدمة . وكل هذه النصوص تظهر وجود علاقة بين الخزر وبين مؤسس الدولة السلجوقية . ويتردد من المصادر العربية ذكر المسلمين ومكانتهم في تلك المنطقة . كما أشارت الملاحم الأدبية البولندية إلى الخزر .

متأخرين عن الاقاليم الغربية فقصدهم على تشجيع الهجرة الى بلادهم ليستطيعوا مجارات الغرب وبذلك هاجر اليهم اقوام من الخزر والارمن وغيرهم . وفي سنة ١٢٦٤ اصدر الملك بوليسلاف مرسوما حدد فيه حقوق المهاجرين اليهود ، فاباح لهم الاحتفاظ بكنائسهم ومدارسهم ومحاكلهم ، وبسطك الاراضي وممارسة التجارة واحتراف ما يريدونه من الحرف . ثم اباح لهم الملك ستيفان باغوري (١٢٧٥-٨٦) انشاء برلمان خاص بهم يجتمع مرتين في السنة وله حق فرض الضرائب على اليهود .

وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر ارسل البابا كليمنت الرابع الى احد امراء بولندة يشكو فيه من كثرة المعابد اليهودية في مدن بولندة . ومن ارتفاع بنائها وكثرة زخارفها وطمعائها في الفخامة على الكنائس المسيحية . ثم اصدر امرا بمنع فيه اليهود من اقامة اكثر من كنيس واحد في كل مدينة . كل هذا حدث في الوقت الذي كانت فيه جيوش المغول تبتلع في غزوها سهوب روسيا ، مما يدل على ان معظم يهود بولندة كانوا من الخزر القادمين من وجه المغول ، وانهم كانوا في وضع مالي جيد . ولعل عددهم لم يقل عن ربع مليون . من مجموع الكلي ليهود اوربا الوسطية البالغ مليوناً في تقدير دائرة المعارف اليهودية . وهذا يدل على ان يهود الخزر كونوا نسبة عالية من يهود شرقي اوربا . ومن الطبيعي ان معظمهم هاجر الى بولندة ولتوانيا ، والى هنغاريا والبلقان .

مكانة عالية

كانت لليهود مكانة متفوقة في بولندة وهنغاريا . فكان منهم مدراء المال وجباة الضرائب والمسيطرون على احتكارات الملح . ويلاحظ ان النقود البولندية المسكوكة في هذا الزمن كانت عليها حروف عبرية . وقد امتد نفوذ اليهود الاقتصادي الى بلاط الامراء ايضا . وامتلك بعض اليهود مزارع واسعة . غير انهم من حيث العموم لم يقبلوا على الزراعة كثيراً ، لان النظام الاقطاعي يمنع هجرة الفلاحين ، كما ان مناخ بولندة يختلف عن مناخ بلاد الخزر ، هذا فضلا عن ان الزراعة لا تؤتي ارباحا كبيرة . وقد أدى هذا الى انصراف اليهود الى الصناعة والتجارة .

وكان يهود اوربا يعيشون في محلات خاصة محاطة بأسوار تقفل ابوابها في الليل . ولم يكن لليهود تجاوز هذه المحلات التي أصبحت بسبب ذلك مزدحمة السكان وتسم بالقذارة . اما في بولندة فكان اليهود يسكنون في محلات مفتوحة يمارسون فيها

اعمالهم في الصناعة والتجارة ، وقد احتكروا التجارة بالخشب والنقل بالعربات الذي ظل سائدا في بولندة حتى دخول السكك الحديدية اليها . واشتغل عدد من اليهود في ادارة الفنادق والخانات ، وفي المطاحن وتجارة الفراء . ولا بد انهم جلبوا هذه الحرف معهم من بلاد الخزر ، لان المحلات المغلقة الغربية لا تفسح المجال لنمو مثل هذه الحرف .

ويلاحظ ان زخرفة معابد اليهود في بولندة يختلف عن زخرفة المعابد في غربي اوربا ، وان البسة اليهود البولنديين من القفطان الحريري الطويل . وكذلك اغطية رؤوسهم تشبه ما هو مستعمل عند الاقوام الساكنة في جنوب روسيا .

● من أين جاؤوا

يتبين مما تقدم (اي ان الاممة الخزرية اختلعت من مسرح التاريخ (٢) انه ظهرت مراكز يهودية في المناطق المجاورة لمواطن الامة الخزرية ، وخاصة تلك الواقعة في الجهات الشمالية الغربية (٣) ان عددا كبيرا منهم هاجر الى بولندة غير ان السؤال الذي يبرز هو : هل استقر في بولندة يهود هاجروا من غرب اوربا .

يهود اسبانيا

ان اقدم الجاليات اليهودية في اوربا الغربية ، ما عدا اسبانيا ، هي الجاليات التي كانت تقيم في فرنسا والراين . وقد استوطنت تلك الجاليات هذه الاقاليم بعد ان طردهم الرومان من فلسطين وشقتهم . ثم انتقل بعضهم الى انكلترة في زمن وليسم الفاتح ليارسوا نشاطهم الاقتصادي والمالي بعد ان تحدد نشاطهم التجاري الذي عرفوا به في المصور الوسطى ، بسبب نمو الطبقة الوسطى في اقاليم غربي اوربا . فانصرف اليهود الى الامور المالية واعتمدوا على الطبقة الحاكمة . وقد بلغ عدد المهاجرين الى انكلترة في زمن وليم الفاتح الفين وخمسمائة .

الاضطهادات في اوربا

وقد تباينت الاضطهادات على الجالية اليهودية في فرنسا . وانتهت بان طردهم فيليب الجميل من فرنسا كلها . اما يهود فرنسا النحاليون فقد جاؤوا من اسبانيا ايار القرن السابع عشر .

اما يهود امانيا فلا نعلم اصولهم ، غير ان الاشارات الى وجودهم تكثر في القرن الثالث عشر ، اي عندما ازداد عدد المهاجرين اليهود من بلاد الخزر

الى بولندة . وقد تردد ذكرهم في المدن الواقعة على الراين مثل متر وستوتجارت وكولون واللازاس . وقد ذكرهم الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي واشار الى قلة عددهم .

ولما بدأت الحروب الصليبية في القرن الحادي عشر ذهب عدد من اليهود في المدن الالمانية لانهم رفضوا التنصر والتعميد ، وبذلك لم يبق في المانيا الا عدد قليل من اليهود الذين اختفوا او التجأوا الى بعض امراء القلاع ثم عادوا بعد هدوء الاحوال الى مدنهم . ولكن لا يوجد أي دليل على انهم هاجروا الى بولندة او الى اوربا الشرقية .

ثم استعاد اليهود نشاطهم في القرن الثالث عشر وتردد ذكرهم في عدد من المناطق الغربية من الراين والبلاتينات وفريبورغ واولسم وهيدلبرغ . غير انهم سرعان ما واجهتهم تكبات جديدة بدأت بطردهم كلها من بلاد فيليب الجميل ومصادرة اموالهم . فهاجروا الى بروفانسي وبورغندي واكويشانيا . غير انه لا توجد اية اشارة الى هجرة احد من هؤلاء اليهود الى المانيا .

وجاءت النكبة الثانية من الطاعون الاسود الذي ظهر في التركستان ومنها انتشر غربا حتى اجتاع اوربا وافنى كثيرا من سكانها . ووافق انتشاره اشاعة عمت بان اليهود عملوا على نشره واتهم بسمون مياه الشرب ، فتعرض كثير منهم للقتل فضلا عن مات بالطاعون . وبذلك خلت المانيا من اليهود الا القليلين الذين لجأوا الى قلاع الامراء . وكل هذا يدل على ان يهود بولندة لم يهاجروا من المانيا .

اما يهود انكلترة وفرنسا وهولندة في القرن السابع عشر فقد جاؤوا من اسبانيا .

فالقول بان يهود غرب اوربا هاجروا من اقليم الراين باعداد كبيرة الى بولندة وانهم اخترقوا اراضي المانيا المعادية لهم ، هو قول لا اساس له من الصحة ولا يتسجم مع الحجم الصغير ليهود الراين ورغبتهم في البقاء هناك . هذا فضلا عن عدم وجود اية اشارة في الكتب الى مثل هذه الهجرات شرقا .

● تيارات متقاطعة

وعلى ضوء ما سبق يمكن ان يفهم المرء اتفاق المؤرخين البولنديين على ان معظم اليهود كانوا قديما في بلاد الخزر . والنق ان المرء ليس الى رأي المؤرخ اليهودي كوتشير بان كافة يهود شرق اوربا هم من اصل خزري خالص .

لقد كانت توجد في اواخر العصور الوسطى جاليات يهودية تقيم في فيينا وبرايغ والالب السكارنشي وابستريا . وان بعض هذه الجاليات هاجرت الى ايطاليا وبولنده وهنغاريا . فمن اين جاءت هذه الجاليات في الاصل؟ قد يمكن الافتراض بان هذه الجاليات جاءت من ايطاليا التي قطنها اليهود منذ زمن الرومان لغير انه لا يوجد ما يؤيد هذا الافتراض ، بل بالعكس توجد ادلة على ان بعض يهود الخزر هاجروا الى ايطاليا .

وقد تبني بعض المؤرخين رواية اسطورية مفادها ان المقاطعات النمساوية في العصور السابقة لانتشار المسيحية كان يحكمها امراء يهود . ولم تذكر المصادر اصول هؤلاء اليهود ، غير ان اسماهم التي ذكرت في الرواية تدل على ان اصولهم من منطقة الخزر . ومن المعلوم ان النمسا ظلت طوال النصف الاول من القرن العاشر تحت حكم الهنغارين . وان المجريين وصلوا تلك البلاد مع قبائل الكبر الخزر في اواخر القرن التاسع ، ولم يكن الهنغارون قد اعتنقوا النصرانية ، اي انهم لم يعرفوا غير اليهودية ديناً موحداً . وجدير بالذكر ان المؤرخ البيزنطي جون ميناموس ذكر وجود اليهود في الجيش الهنغاري . وكل هذا يلقي ضوءاً على اصول هذه الاسطورة .

دليل لغوي

ومما يناقض الادعاء بان يهود شرقي اوربا جاؤوا من بلاد الراين هو التركيب اللغوي لليديش ، وهي لهجة اللوام اليهود ، وكانت شائعة آنذاك ولا تزال مستعملة عند بعض الاقليات اليهودية في كل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة . وهذه اللهجة هي خليط غريب من العبرية والالمانية الوسطية والسلافونية وعناصر اخرى . وهي تكتب بالحروف العبرية . وقد بدأ الاهتمام بدراستها منذ سنة ١٩٢٤ حين نشر العالم اللغوي ميسنر دراسته عنها . ويتبين من هذه الدراسة انه ليس في اليديش اية كلمات المانية مما يستعمل في منطقة الموزيل او فرانكفورت او المناطق المجاورة لفرنسا . والكلمات الالمانية التي وجدناها ميسنر في اليديش كلها مما يستعمل في المانيا الشرقية . وبلا حظ ان اليديش لغة عامية ليس لكتابتها قواعد محددة ، فكل فرد يكتب كلماتها كما يريد دون التقيد بقاعدة .

التأثر بالثقافة الالمانية

وبلا حظ ان بولنده عملت في عهد ملكها

كارزمبر العظيم على جلب الالمان الى بولنده لاعمارها ، والمحدث عليهم الامتيازات ، وامنت لهم الحرية والحقوق فنشطوا وانشأوا جامعة كركاو ، وساعدوا على تعليم بولنده وجعلها مركزاً اقتصادياً وفكرياً كبيراً وانتشرت بين البولنديين الثقافة الالمانية وازداد تقديرهم لها .

وقد تأثر الخزر المهاجرون الى بولنده بدورهم ، فاحدوا يقيسون من الثقافة الالمانية وبعدها . ونم يقف بوجه هذه الثقافة الالمانية الا لفرقة اليهودية المعروفة باسم القرائين . وكان اتباعها يميلون الى الزهد والى كره تعاليم علماء الدين اليهود . رجدير بالملاحظة ان القرائين في سنة ١٨٦٧ كان عددهم في روسيا (التي كانت تضم شرقي بولنده) يبلغ ١٢٨٩٤٢ ومنهم ٩٦٦٦ لغتهم التركية (وربما كان اصلهم خزري) ولم يكن يتكلم اليديش منهم يتجاوز ٢٨٣ . ويرجع عدم تكلم يهود بولنده باللغة التركية الى انهم تركوها استعمالها ، وبذلك فعلوا ما يفعله احقاد المهاجرين الى الولايات المتحدة . وهذه عادة مالوفة عند اليهود . وكان بدء النهضة الاوربية ايداناً بدء العصور المظلمة اليهودية ، فقد أصبحت تطبق بحقهم قوانين صارمة ، ويفصلون عن الناس ، ويحرمون من الوظائف والحرف المحترمة ، ويميزون بالملابس . وصاروا يعزلون في محلات مغلقة هي الجيتو .

اما في بولنده فقد تمتع اليهود ببعض الحرية حتى اواخر القرن السادس عشر حيث ادى تطبيق الجيتو وكثرة المهاجرين الى ازدحام مناطق سكنهم والى سوء احوالها الصحية . وقد اضطرهم ذلك الى الهجرات الى هنغاريا وبوسينيا ورومانيا والمانسا حيث حلوا محل من زال بعد الطاعون الاسود .

يهود اوربا لفقاسيون وليسوا من فلسطين .

كل هذا يظهر ان معظم اليهود في اوربا ليسوا من فلسطين في الاصل بل انهم فقاسيون في الاصل . وان مجرى الهجرة اليهودية لم يسر من البحر المتوسط الى فرنسا ومانيا ، ولكنه كان يسير دائماً نحو الغرب مبتدئاً بالفقاس فاوكرانيا فبولنده فاوروبا الوسطى . وهذا لا ينفي ان عدداً من اليهود جاؤوا من الغرب ، ولكن معناه ان اكثرية اليهود سارت في المسار الذي ذكرناه .

خرافة العرق

السفرديم

ينقسم اليهود في عصرنا الى قسمين رئيسيين هما السفرديم والاشكنازي . فاما السفرديم فهم متحدرون من اليهود الذين سكنوا منذ ازمة قديمة في اسبانيا (وهي تسمى بالعبرية سفاراد) ثم طردوا منها في اواخر القرن الخامس عشر فانقلوا الى البلاد المجاورة الواقعة على البحر المتوسط ، وكذلك الى البلقان والى غرب اوربا . وهم يتكلمون اللهجة العبرية الاسبانية (اللادينو) ولهم طقوس دينية خاصة وكان عددهم في سنة ١٩٦٠ يبلغ نصف مليون .

الاشكناز

اما الاشكناز فهم الغالبية العظمى من اليهود ، اذ يبلغ تعدادهم حوالي احد عشر مليوناً لقد ذكرت التوراة الاشكناز باعتبارهم قوماً يسكنون في منطقة قرب جبل ارارات في ارمينية . ورد هذا التعبير في سفر التكوين (١٠ . ٣) وفي سفر التواريخ (١ . ٦) باعتباره احد اولاد جومر ، ابن يافث واخو طغرمة وابن اخ ماحوج الذي يدعي الخزر انه جددهم .

وذكر الاشكناز في سفر ارميا (٧٠٥١) حيث دعاهم النبي ارميا الى تدبير بابل . وقد فسر معديا الجاعون ، وهو من اكبر علماء اليهود في العراق في القرن العاشر الميلادي ، هذا النص بأنه نبوءة عما سيحدث في عصره اي في القرن العاشر ، وان المقصود ببابل هو الخلافة الاسلامية ببغداد ، والمقصود بالاشكناز هم الخزر او حلفاءهم . ويرى بولياك ، وهو استاذ تاريخ اليهودية في المصور الوسطية في الجامعة العبرية ، ان بعض علماء يهود الخزر سمح تفسير معديا فصار يطلق على اليهود الذين هاجروا الى بولنده اسم (الاشكناز) .

دم اليهود غير خالص:

الادلة الانثروبولوجية

لخص راناثيل باتاي في المقال الذي كتبه في دائرة المعارف البريطانية (طبعة ١٩٧٣) المناقشة العادة القديمة عن مدى نقاوة الدم اليهودي بالفقرة التالية : وان الادلة المستمدة من الانثروبولوجيا الفيزيائية تظهر بانهم لا يوجد جنس يهودي كما هو سائد عند الناس ، فمقاييس اجزاء الجسم المسجلة لليهود تظهر بانهم يختلفون فيما بينهم اختلافاً كبيراً في مختلف المظاهر البدنية بما في ذلك القامة ، والوزن ، ولون البشرة ، وشكل الجمجمة ، ومقاييس اعضاء الوجه ،

واصناف الدم • والواقع ان دراسة اصناف السلم تظهر ان اليهود لا يختلفون عن الشعوب التي يقيمون بينها •

وجاء في إحدى الدراسات الفاضحة التي نشرتها منظمة اليونيسكو عن مسألة العرق في العلم الحديث • وقد كتب هذه الدراسة الأستاذ جيسوان كوماس:

• بالرغم من الرأي السائد • فان الشعب اليهودي خليط من اجناس متنوعة • والواقع ان هجرات اليهود المستمرة وعلاقاتهم الطوعية او القسرية مع اقوام متعددة جدا من الامم والشعوب كانت من عوامل هذا التنوع وان ما يدعى شعب اسرائيل يمكن ان يظهر امثلة على صفات يتصف بها كل شعب ويكفي للتدليل على ذلك ان نقارن اليهودي من دوتروم وما يتبين به من ضخامة باين دينه من اهل ميلانيك وما يتصف به من عيون غائرة ووجه عريض وجسم هزيل • وهكذا فان معلوماتنا تظهر ان اليهود عموما يمثلون درجة كبيرة من التباين والاختلاف تفوق ما يوجد بين الشعوب الاخرى •

طول القامة

وذكر وليم ريلبي في كتابه الكلاسيكي • عروق اوربا • الذي طبع سنة ١٩٠٠ •

واليهود الاوربيون قامتهم اقصر من المعتاد • وهم في الغالب Stanted مطلقا وقد اورد على ذلك احصائيات كثيرة • غير انه ذكر ان قصر القامة قد يكون مرجعه للتأثر بعوامل محيطية •

وفي سنة ١٩١١ نشر موريس فيشبرج كتابه • واليهود: دراسة في العرق والمحيط • وهو اول مسح انثروبولوجي من نوعه باللغة الانكليزية وقد كشف في هذا الكتاب حقيقة عجيبة وهي ان اطفال المهاجرين من اوربا الشرقية الى الولايات المتحدة قد يصبح معدل طولهم ١٦٧ سم اي ان الطول يزيد حوالي انج ونصف في مدى جيل من الزمن • وهذه الظاهرة تنطبق على المهاجرين من الاجناس الاخرى • وهي ترجع الى تحسن التغذية والى عوامل محيطية اخرى •

ثم جمع فيشبرج احصائيات تقارن بين معدل طول اليهود وطول الشعوب الاخرى في بولندا • والنمسا • ورومانيا • وهنغاريا • الخ • وكانت النتيجة عجيبة ايضا: فقد تبين منها ان طول قامة اليهود يتطابق مع طول قامسة غيرهم ممن يعيشون معهم • فيكونون طوال القامة • في البلاد التي اهلها طوال القامة والعكس بالعكس • ثم ان اطوال قامة الناس سواء كانوا يهودا او غير يهود • تكون متباينة في المراد نفس الامة بل وفي نفس المدينة •



يهود من شعوب أخرى

ثم ان عددا من مختلف الشعوب اعتنقوا اليهودية؛ نذكر من ذلك فلاشا الحبشي، وكان فتح الصين، ويوسف ذي نواس اليماني. وظل التهود يحدث حتى في العصر الروماني وبعد سقوط الدولة اليهودية. فقد اعتنق اليهودية في تلك الفترة افراد من حدياب واليونان وانطاكية. ويقسول المؤرخ اليهودي رايناخ ان اليهودية في العصور الهلنستية والرومانية اتسمت بصفة لم تخص بها في اي عصر اخر وهو انها اخذت تنتشر لمدة قرنين او ثلاثة بين الناس، وخاصة في مصر وقبرص وليبيا. ولا بد ان هذا رافقه اختلاط دم الاسرائيليين بدماء الشعوب الاخرى.

الجيتو وحصر الزواج

ان ظهور المسيحية وتطبيق نظام الجيتو اديا الى حصر اليهود، غير ان الجيتو لم يطبق بدقة الا في القرن السادس عشر. والواقع ان التزاوج بين اليهود وغيرهم ظل ساريا وكان سببا لاستياء رجال الدين النصاري ولاسيما المجالس الدينية مراسيم متعددة، كالمراسيم التي اصدرها كل من مجلس طليطله سنة ٥٨٩ ومجلس روما سنة ٧٤٣ ومجلس لايران سنة ١١٢٣ و ١١٣٩ وكذلك المرسوم الذي اصدره الملك لادسلان الثاني الهنطاري في سنة ١٠٩٢. والواقع ان الجيتو حصر الزيجات مع غير اليهود ولكنه لم يمنعها، حتى انه كان في المانيا بين سنة ٩٢١ و ١٩٢٥ اثنان واربعون زيجة مختلطة من بين كل مائة زيجة يهودية.

تنصر يهود اسبانيا

اما يهود اسبانيا (السفارديم) فن المعلوم ان كثيرا منهم تنصر؛ فبعد مذابح سنتي ١٣٩١ و ١٤١١ تنصر اكثر من مائة الف؛ ولكن كثيرا منهم ظل يعتنق اليهودية سرا، فاحتفظوا بخاصيتهم العليا وتزوجوا مع غيرهم فلما صدرت قوانين طرد اليهود من اسبانيا (سنة ١٤٩٢) ومن البرتغال (سنة ١٤٩٧) زادت الشكوك في المتنصرين منهم، واحترقت محاكم التفتيش عددا منهم، واضطر اخرون الى الهجرة الى الاقاليم الاخرى من البحر المتوسط، والى هولندا، وانكلترا، وفرنسا حيث اعلنوا يهوديتهم في هذه البلاد.

تصنيف الدم

اما اصناف دمائهم فهي متباينة ايضا. وقد اجمل ذلك شابيو في فصل كتبه في احدي الدراسات التي نشرها اليونيسكو بعنوان الشعب اليهودي: تاريخ بيولوجي حيث قال: ان الدم الواسع في التوزيع بين السكان اليهود في خصائصهم الفيزيولوجية، وتنوع تكررات ال Genes لمجموعات الدم فيهم يجعل اي تصنيف جنسي موجد لهم يبدو غير مضبوط.

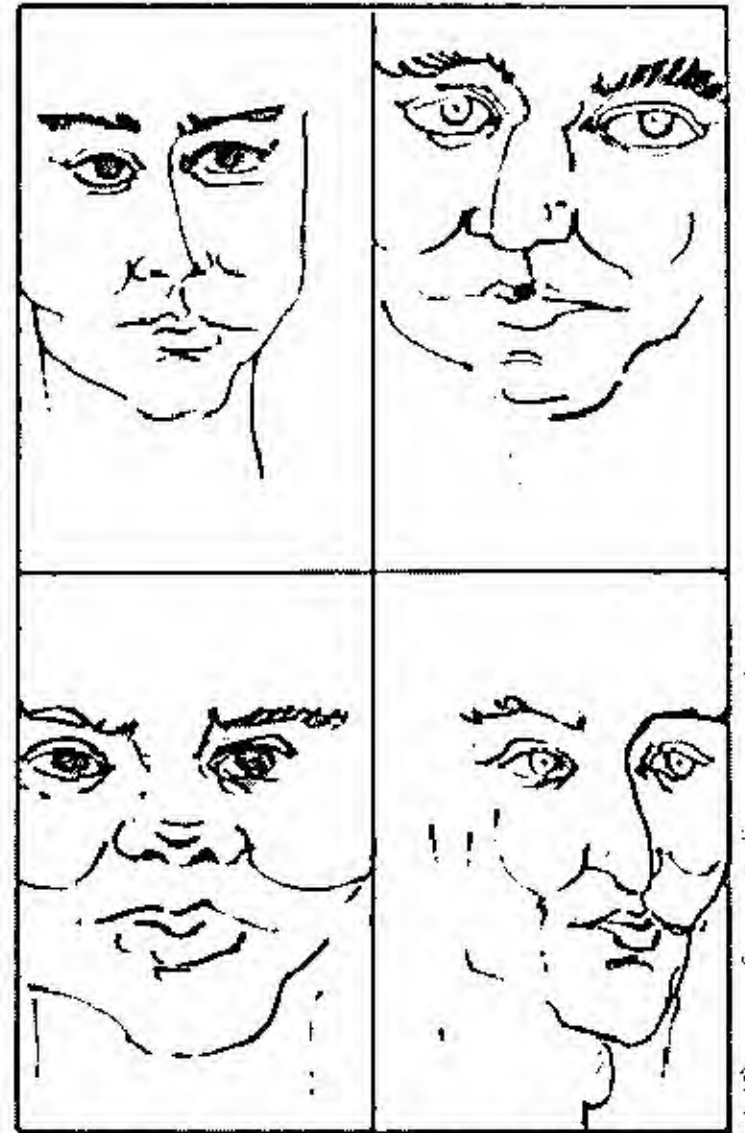
ان القضية الاساسية كما يقسول فيشبرج هي: هل ان اليهود عرق نقى الدم تكيف الى حد ما بتأثيرات محيطية؟ ام انهم فرقة دينية تتكون من عناصر عرقية متنوعة جاءت من تنوع اصول المتهودين ومن الاختلاط بالزواج ابان هجراتهم الى مختلف ارجاء العالم. وقد اجاب فيشبرج عن ذلك بوضوح حيث قال:

اختلاط اليهود قديم

فلنبدأ بالادلة الدينية واخبارها اذ يبدو ان قبيلة اسرائيل كانت منذ بداية ظهورها مكونة من عناصر عرقية متنوعة. فقد كانت في اسيا الصغرى وسوريا وفلسطين آنذاك شعوب متعددة لكل منها سمات خاصة: فالصوريون شقر البشرة، نحاف البدن، طوال القامة وذوي رؤوس مستطيلة؛ والحثيون سمر البشرة وهم اقرب شيئا بالمغول، والكوشيون وهم من عرق زنجي، هذا فضلا عن شعوب اخرى. وقد تزوج اليهود مع كل هذه الشعوب كما يتضح ذلك من نصوص التوراة.

اصول متباينة

لقد نصح انبياء اليهود شعبهم بعدم الزواج من نساء من دين اخر، غير ان اليهود، وخاصة ملوكهم، كانوا اول المخالفين لتعاليم انبيائهم فقد تزوج ابراهيم الخليل هاجر، وهي امرأة مصرية؛ وتزوج يوسف من ابنة راعب مصري، وتزوج موسى امرأة من مدين؛ وكان ششون اليهودي المشهور بقوة فلسطينيا. اما الملك داود فكانت امه مابيه، وزوجته جيشورية. اما سليمان فكانت امه حثية، وكان يفضل النساء الاجنبيات فقد تزوج ابنة فرعون، ونساء مائيات، وعموريات، وادوميات، وزيدونيات، وحثيات ويتجلى من التوراة ايضا ان كثيرا من عامة اليهود قلدوا حكمهم في الزواج من الاجنبيات ولا يخفى ان التوراة تبجح الزواج من الاسرى وهكذا لم يشذ اليهود عن الشعوب الاخرى في عدم قصر الزواج على نساء من جنسهم.



من ٢٨٢٦ يهودي يسكنون نيويورك سبعة منهم قط انهم سقوة ٠,٥٧٪ متينة ٠,٢٠٪ غمر ٠,٦٩٪ متينة مريضة.

وذلك تبعا لرخاء تلك المنطقة؛ وهذا لا يعني علم تأثير الوراثة في الطول، فاننا نؤكد في الحقيقة على العوامل الوراثة ولا نعطي العوامل المحيطية أهمية خاصة.

مقاييس الجمجمة

فلنعد الآن الى مقاييس الجمجمة التي كان الاثروبولوجيون يهتمون بها؛ وهنا ايضا نجد ان مقاييس جماجم اليهود لا تختلف عن مقاييس غير اليهود الذين يعيشون معهم في نفس المنطقة؛ اي ان مقاييس جماجمهم متنوعة، فجماجم اليهود السفارديين مستطيلة، وجماجم الاشكنازيين مستديرة.

والشائع ان اليهود ذوي شمود سوداء وعيون سوداء، غير ان كوماس قام بدراسة تبين منها ان ٤٠٪ من اليهود البولنديين شعرهم فاتح، وان ٥٤٪ من اطفال اليهود في النسا ذوي عيون زرقاء. اما فيرشوف فقد تبين له من دراسة قام بها ان ٣٢٪ من اطفال اليهود لونهم اشقر.

التزاوج

وقد امتد هذا الاختلاط في التزاوج إلى يهود فلسطين أنفسهم. فقد روى لنا مثلا أن يهودا بن حزقيال عارض زواج ابنه من امرأة لا تنحدر من نسل ابراهيم، فقال له صديقه أولا: كيف تستطيع التحقق بأننا أنفسنا لسنا متحدرين من الوثنيين الذين انقضوا باكرات صهيون عند حصار اورشليم. ومن المعلوم أن غشيان نساء العدو كان يعتبر في التاريخ القديم حقا طبيعيا للجيوش الفاتحة. ويزعم المؤرخ اليهودي جرايمز أن يهود ألمانيا تحذروا من نسل وحدة عسكرية ألمانية كانت تقاوم مع الجيش الروماني في فلسطين فأخذوا فسادا فتيات يهوديات كان من نسلهن أقدم يهود ألمانيا.

ولم يقتصر التزاوج بين اليهود وغيرهم على ألمانيا الغربية، بل كان سائدا في أوروبا الشرقية أيضا. فيقول فيشرج:

«لقد كان الاختلاط الجنسي الناجم عن الحروب كثير الحدوث في البلاد السلافية حيث كان رجالها يعملون أن اليهود يحاولون دماء اسراهم، فكانوا يعملون على الاكثار من أسر اليهود للحصول على الفدية، وكانوا يتكهنون النساء الأسيرات».

هل لليهود سحنة خاصة

يدعى البعض أنهم يمكنهم تمييز اليهودي من أول نظرة. فهل هذا صحيح؟ لقد قال ارنست رينان في سنة ١٨٨٣، لا يوجد لليهود شكل واحد، بل توجد لهم عدة اشكال: فلليهود اشكال متعددة، كما أن عددا ممن تصودهم يهودا، هم ليسوا كذلك.

الأنف

وقد ساد بين الناس أن أبرز ما يميز اليهود هو شكل أنوفهم المحدبة التي تشبه منقار النسر؛ غير أن من الغريب أن فيشرج فحص ٢٨٣٦ يهوديا من مدينة نيويورك، فوجد أن سبعهم فقط كان له مثل هذا الأنف، وأن ٥٧٪ منهم كانت أنوفهم مستقيمة، و ٢٠٪ ذوي أنوف فطس، و ٢٥٪ كانت أنوفهم مستوية عريضة. وقد وجد عدد من الاثنوبولوجيين مثل هذه النتائج في بولندا وأوكرانيا.

وبلاحظ أن الأنوف المعقوفة كثيرة عند قبائل الفقاس وعند سكان آسيا الصغرى، وأن لليهود امريكا أنوف تشبه الأنوف التي يزعم الناس أنها من خصائص اليهود. أما البعد والعرب، وهم يمثلون السامية النقية ليست لهم أنوف معقوفة.

وما ذكرناه عن الأنف ينطبق على بقية أجزاء أوجهه التي يزعم بعض الناس أنها تميز اليهود، في حين أنهم لا يحتكرونها بل توجد عند أمم أخرى أيضا.

صفات مكتسبة من المحيط

إن الصفات المكتسبة من الأوضاع الاجتماعية ومن العوامل المحيطية الأخرى يصعب جدا فصلها عن العوامل الوراثية؛ وهذه الصفات المكتسبة تأثر كبير على السلوك والكلام والمادات؛ وأن من أهم وسائل تمييز اليهودي هي ملاحظة هذه الصفات المكتسبة. وملاحظة البسطة وطرق قص شعره؛ غير أن هذه الألبسة إذا لبسها غير اليهودي فإنه يبدو وكأنه يهودي. وهذا لا يقتصر على اليهود وحدهم، بل ينطبق على معظم الشعوب الأخرى. وهو يتجلى بوضوح من مراقبة الخصائص العامة التي يتميز بها سكان الولايات المتحدة علما بأن اصولهم العرقية متنوعة جدا. وجدير بنا أن نتذكر أن اليهود في العصور الحديثة عاشوا في معظم البلاد معزولين في محلات خاصة (الجيتو) فخصموا إلى محيط متشابه وتمرضوا إلى تأثيرات متشابهة.

عزلة اليهود في الجيتو

إن اليهود منذ زمن الثورات حتى العصور التي طبق فيها الجيتو سادت عندهم العزلة، وانحصر زواجهم في داخل جماعتهم المعزولة، ولا ريب في أن هذا التزاوج الداخلي قد يؤدي إلى الاحتفاظ ببعض الصفات الجيدة، كما هو الحال في تزاوج الخيول. غير أنه كثيرا ما يسبب خطر جلب عناصر مضره مجمدة أو افساح المجال لزيادة تأثير هذه العناصر. ولعل هذه العزلة هي سبب ما عرفه الناس عن كثرة البلهاء في اليهود.

ومن تأثيرات العزلة أيضا التغيرات التي تحدث على العناصر الموروثة: فمن المعروف أن بعض الخصائص في الوراثة البيولوجية تنقرض في الشعوب المعزولة أما لعدم وجود من يحملها أطلاقا، أو لقلية الذين يحملونها وعدم نجاحهم في نقلها إلى الأجيال التالية، وهذا قد يؤدي إلى تبدل كثير من الصفات الوراثية.

ثم إن اليهود لم يشبهوا كثيرا بالزراعة، ولم يكثروا سكنى الريف، بل قصرُوا نشاطهم على المدن فأصبحوا مكتضين فيها، وقاسوا من الاخطار التي بولدها حصر أنفسهم في الجيتو؛ وهذا أدى على حد قول

شامبرو إلى أن «الأوبئة الكاسحة التي اجتاحت البلاد في العصور الوسطى كان لابد أن تؤثر في اختيار اليهود أكثر من غيرهم، فقد ألقت الضعفاء، واكسبت الباقي منهم مناعة تفوق ما لغرهم». ويعتقد شامبرو أن هذا هو سبب قلة التسل عند اليهود.

الزواج

وقد رافقت المعيشة في الجيتو ضغوط معادية تراوحت بين الاحتقار البارد إلى أعمال عنف تطبق تبعاً لبرامج منظمة. ولا بد أن الحياة لعدة قرون في مثل هذه الظروف قد أدت إلى بقاء أشدهم حضور بديهة وأكثرهم مرونة وقابلية على البقاء. وهذه صفات يتميز بها اليهود الذين عاشوا في الجيتو. ولا يزال الجدل قائما حول ما إذا كانت هذه الصفات السيكولوجية تقوم على أسس وراثية تعمل بتوجيهها عملية الاختيار، أم أنها منقولة بالوراثة الاجتماعية خلال التكيف منذ الطفولة. فالشهور مثلا أن اليهود معتدلون في شرب الخمر، وهذا يمكن تفسيره بأنه من أنساب الجيتو؛ فإن الذي يعيش في ظروفه لا بد له أن يضبط نفسه من تصرفاته إذا أراد ألا يناله الأذى غير أن هذه الصادة تزول عند زوال ظروف الجيتو، فهي مسألة بيولوجية وليست وراثية اجتماعية.

يقول ديلي «إن اليهودي من أصل عرقي مختلط، ولكنه من جهة أخرى الوريث الشرعي لليهودية؛ فإن اليهودية قد أثرت في كل جزء من تفاصيل حياته فلماذا لا تؤثر على جسمه وعلى جمال نسائه وعلى اختياراته في الزواج».

غير أن ديلي لم يدرس أثر الجيتو، أما فيشرج فقد درس هذا الأثر ووصل إلى الرأي الطريف التالي: يتميز يهود أوروبا الشرقية بقوة البدن، أما بقية اليهود فالمعروف عنهم أنهم نحاف الجسم قصار القامة. غير أن هذه الصفات أخذت اليوم بالتبدل، وصار كثير من يهود أوروبا الغربية والولايات المتحدة يفخرون بأنهم لا يشبهون اليهود. وعلى هذا فائنا نأمل تبدلات كبيرة فيما يدعى «الطبقة اليهودية»، وخاصة عند الناشئة الإسرائيلية.



عمان ١٩٨٠
لبنان ١٩٨٦

